رسالة إلى صديق أديب مات ..

بقلم أنيس زكي حسن

اخي العزيز ،

لا استطيع حتى هذه اللحظة ان اصدق انك قد مت ، مع ان عظامك نفسها قد تكون تلاشت الان ، ولا استطيع ان اصدق انك لا ترى الفجر ، وتبتسم له سعيدا مغتبطا ، ولا تصافح الليل وتتناول القدح من يده الغادرة ، ولهذا فساكتب لك هذه الرسالة وانا افكر في ثلاثة احتمالات : الاول ، انك لم تمت حقا ، وان الامر كله مجرد كابوس مزعج ، والثاني ، انك ، ان كنت قد مت حقا ، تستطيع ان تقرأ هذه الرسالة بطريقة ما ، والثالث ، انك قد مت حقا ولن يكون في وسعك ان تقرأ او تسمع أوتعرف اي شيء ، اي انك اصبحت عدما .

هاانت ترى انني لم اتبدل كثيرا ، فانا ما ازال ابحث في المواضيع ذاتها التي كنا نبحث فيها دائما ونتناقش بشانها نقاشا عنيفا . واذا كنت ماتزال موجودا بطريقة من الطرق ، فلا بد انك تصغي لي ، او تقرأ ، باهتمامك المعروف بهذه القضايا والامور .

ولكنك تعرف الان اكثر ما اعرف بالتاكيد ، ولعلك تحاول جاهدا ان تسمعني شيئا من ارائك او قصائدك ، الجديدة طبعا ، وكم اتوق الى سماع ذلك منك الان . بيد انني لا اكتب هذا لكي اناقشك في شيء ، او الومك ، او اتبجح امامك ، وانما افعل ذلك لان الكتابة اليك اصبحت عادة من عاداتي ، كالتدخين تماما ، وانا لا استطيع ان اكف عن ذلك .

انت الان ميت ، تتوسد حفرة صغيرة وتقبع تحت الواح من الخشب، وحجارة وتراب وقماش ملفوف ، وربما اعطت النخلة القريبة منك مسيلا اخذ ينمو ويترعرع ويجثم فوق صدرك ويحول قصائدك وافكارك الى تمر حلو . انني اتذكر صدرك جيدا ، فقد كنت تضع يدك عليه دائما وتقول : لا بد ان هنالك امرا خطيرا في هذا القفص المعذب ، ثم تنفث الدخان من سيكارتك وتبتسم ابتسامة غير مكترثة وتضيف : كلا ، لابد انني دخنت كثيرا اليوم .

من اين ابدا رسالتي هذه اليك ؟ الايام كثيرة والحوادث اكثر . وهنالك ايضا حياتي الحاضرة التي تتصل بذكرياتي عنك وتمتزج بها ، والتي لا تتصل . انني ، لعلك تعرف او لا تعرف ، ما ازال حيا ، وقد تناولت لتوي وجبة لذيذة من الطعام ، من الوان كثيرة من الطعام الشهي الذي كنا نعاني الحرمان منه فترة طويلة من الزمن . وقد تمشيت قليلا في حديقتي الصغيرة التي ملاتها زهور الصيف الفواحة التي لم يقتلها الصيف بعد ، وتنفست الهواء النقي عميقا ، ولا بد لي من ان اعترف لك بان حياتي اتجهت اتجاها مختلفا منذ تلك الايام التي انقطعت فيها عن رؤيتك ، فلدي الان عمل لا عمل فيه ، ولدي ، ايضا ، حياة لا حياة فيها. ان هذه العبارات تعجبك كثيرا ، وقد كنت تردد مثيلاتها دائما .

هل ابدا باليوم الذي عرفتك فيه ؟ لقد كان يوما حافلا يا صديقي. كنت انت محمولا على الاكتاف تنشد قصيدة ارتجالية ، او هكذا كانوا يقولون ، فقد اخبرتني انت فيما بعد بانها لم تكن كذلك . وقد القيت بيتين او ثلاثة ابيات منها ثم تحشرج صوتك واحتقن وجهك وصمت ، فانزلوك وانطلقت المظاهرة الصاخبة في طريقها نحو بركة الدم في الساحة البعيدة ، وسمعنا صوت الرصاص ، وغبت انت في الزحام ، وحين حل العصر رايتك تجلس في المقهى البرازيلي وتتحدث عن المظاهرة والقصيدة، فاقتربت منك ونظرت اليك باعجاب وانضممت الى حواريك ومضيت ، ايضا ، اتحدث عن المظاهرة والهتافات والرصاص الذي لم يصبنا ، واشياء اخرى .

كنا ، انت وانا ، نهتف من اجل الحرية ، وكان الاخرون يهتفون من اجل اشياء اخرى . ولم يكن احد يشاركنا في هتافنا ذاك ، وكان ذاك هو الذي جمعنا منذ ذلك الحين . كان الاخرون يسقطون ويحيون اسماء معينة ، وكانوا يطالبون بالخبز ، وبالقانون . اما نحن فكنا نريد شيئا لا اخالك ، ولا اخالني ، نعرفه حتى الان ربما تعرفه انت الان .

وكنت تحدث بعض الجالسين في ذلك المقهى عن ذلك الشيء ، وكانوا ينافشونك فيه ، ويناقشوني ، ويطلبون منك ان تحدد لهم ما كنت تعنيه ، وكنت تحاول ان تفعل ذلك ، فتتلعثم ، ويحتقن وجهك ايضا وتنفث دخان سيكارتك المشتعلة دائما ، ثم تصمت ، واشعر انذاك بانك تريد ان تلقي قصيدة ، وبانك لا تستطيع أن تعبر عن ذلك الشيء بكلمات خرساء عمياء ، وانما تستطيع ان ترسمه بقصيدة فقط .

كانت تلك اياما جميلة ، كنا نستطيع فيها ان نقتل الوقت بالحديث، وبالمظاهرات ،وبالثرثرة في المقاهي المرموقة ، وكانت مشاعرنا جميعا ، وافكارنا ، واحلامنا ، تستقطب حول غد ، ونور ، وشاطيء ، وفجر ، وحرية ، وانطلاق ، وصرخة ، وغير ذلك من الامور التي كنا ننسج منها المستقبل في الكلية وفي المقهى وفي الشارع .

وأؤكد لك انهم ما يزالون يفعلون ذلك في المقاهي والشوارع والكليات ، يحمل كل واحد منهم ذات الذات العملاقة التي كنا نحملها ولا نعرف ما نصنع بها ، وما يصنعون . وقد تحول الجميع ، كما تعرف واعرف جيدا ، الى تماسيح هائلة ، اذا قبعت فانها تقبع دهرا وكانها موتى، واذا مر في طريقها طفل مزقته والتهمته وكانها غيلان ، وانهمكت تنشيء لنفسها بيوتا وتصنع فيها بيضا ، وتلاشت الذوات العملاقة ، ولم يعد في الادمغة غد او نور او شاطيء او غير ذلك .

وقد اكتشفنا ذلك معا ذات يوم ، حين وجدنا اننا كنا نصرخ وحدنا، حين تحولت احلامنا وافكارنا الى شقاء متصل من اجل العيش ، وواجه احدنا الاخر في زاوية كزوايا السجن ، نحتضر احتضارا لنكسب لقمة العيش ، في دوامة هائلة من العمل المضني حتى منتصف الليل ، نصب ارواحنا في صفحات لا تنتهي من السقم ، والزيف ، لكي يقراها في الصباح حشد من التماسيح التي اورم اجفانها النوم ، وملا بطونها لحم الاطفال ، وكنا في تلك الليالي المضنية الطويلة ، المتسخة بحبر المطابع الاسود ، والفشافيش الرخيصة ، والسباب والشتائم ، والشاي تلو الشاي تلو الشاي ، نصب الفجر والغد والنور والحرية والانطلاق في سطور صفيقة لم نعد نحس بها ولا نشعر ، واعلانات تمتليء بالاحذية والصابون والسمنت وكل شيء لا غد فيه ولا نور ولا فجر .

كنت انذاك تسعل كثيرا ، وكان هيكلك الناحل يتقلص وينكمش يوما بعد يوم وكنت تتلفع بلفاف قذر ، ولحيتك طويلة ، وعيناك زائغتان ، ولكنك كنت تحدثني ، كنت ماتزال يدك المعروقة في جيبك الذي يعوى فيه الفراغ ، وتخرج ورقة تفتح طياتها ، ورقة متسخة بعرقك، غارقة بدموعك ، وتقرأ لي وانت ترتجف ، وتهتز كالسعفة ، ويرتسم في وجهي تعبير احمق اخرس اعمى ، واتثاءب لان الليل كاد ان يحتضر ، واقول لك ان النوم هو خير من الف قصيدة ، النوم يا عزيزي ، التسماح الكامن في اعماقنا ، لماذا نستمر في كبته ، لماذا لا نعيش له كما يعيش الاخرون ؟

ونفترق في الشارع الخاوي ، ونسير وكلاب الليل ، انت تحنـي ظهرك وتسعل ، ولم تعد في الشارع سيارات ، ثم تبتلع المدينة النائمـة كيانك الهزيل المتعب ، وبينما تتمتع التماسيح بالفجر والصباح ننبذهمـا نحن ، ونسدل الف ستار وستار ، ونستسلم لنوم مريض .

وما اظنك تذهب لتنام ، وربما تجلس وحدك في غرفتك الصغيرة الضيقة القذرة في فندقك الرخيص ، وتسعل وتكتب ، تغمس قلمك في سعالك الدموي ، وتنتحر انتحارا بطيئا ، وربما كنت تجد بعض اللذة والراحة في موتك البطيء .

فكيف اصدق انك نائم الان ، وانك لن تستيقظ ابدا ؟ على الاقل لتكتب شيئا ، او لتقرأ شيئا مما كتبت في هذا الصمت الطويل . لعلك كنت تعرف انك ستنام مثل هذا النوم الطويل ، فاجلت نومك اليه، ورفضت ان تكون تمساحا في حياتك .

لقد كنت تبحث عن الموت دائما ، في الشارع وفي القصيدة ، وفي الليل الوحف العاوي ، وفي صدرك المنخور ، وفي الدخان ، وكنت ترثي نفسك دائما ، حتى حين كان بعض التماسيح يصفقون لك .

وقد ذهبت انت الى الموت ، وذهبت انا الى النسيان ، ولم يسبق الا بعض التماسيح ، وقد فتح هؤلاء دكانا صاروا يجتمعون فيها ، ويبيعون دمك بضاعة رخيصة ، ويقهقهون ويتندرون ، ويعلقون صورتك في مكان ما من دكانهم ، وهبط كل شيء الى حضيض الاعلان الرخيص الذي قتلك وقتلني في تلك الليالي الطويلة ، اعلان عن جمعية تعاونية ، اعلان عن جمعية مساكن ، واعلان عن جمعية ادبية ، واعلان عن احذية ..

كم كانت طريقتك في الخلاص نبيلة ، وكم هي طريقتي يائسة مستسلمة تنضح بالجبن ، ولكن ماذا افعل يا عزيزي ، فانا ايضا اصارع في نفسي تمساحا ، استسلم له حينا ، ويستسلم لي حينا آخر ، لا استطيع ان اكون مثلك ، ولا استطيع ان اكون مثلهم ، ولا اعرف ماذا اكون .وانت ترى انني كما قلت لك ، ما ازال ابحث في المواضيع المتهرئة البالية التي اشبعناها بحثا ، واصاب بين الحين والحين بنزف شعروي، وانقلب عليه بسرعة ولا ادعه يستنزف كل دمي ، كما جرى لك ، ولكنني ما ازال ذلك الحائر ، ذلك الضائع الذي لا يعرف اين يتجه ، وكنت انت سلواي وعزائي في الماضي ، اما وقد ذهبت الان الى غير رجعة ، فانني اتناول الصفحات الجميلة الملونة التي وضعوا فيها قصائدك الان ، واقرأ متقمصا صوتك الراجف الدامي ، فلا اجد الحلاوة التي كنت اجدها ، ولا تنبثق دمعة ، ولا يهتز وتر ، فكأنك كنت انت القصائد ، وحين ذهبت لم يعد هنالك بعدك شيء ، كأن حياتك المعذبة كانت هي القصيدة الكبرى التي كنت تردد ابياتها بالاهة ، والحسرة ، ونفثة الدخان ، والسعال ، والحرمان ، والحيرة .

والمثل الذي ضربته ما زال يضرب في كل يوم ، وما يزال يتكرر ، ولو بحثت لوجدت الفا من امثالك ، اولئك الذين يحولون الحلم الى كابوس ، والنور الى ظلام ، والحرية الى السجن ، والابتسامة الى دمعة، والفكرة الاصيلة البريئة الى اعلان تافة ، لكي تعيش اجسادهم الهزيلة وتقتات كالدود ، ثم يموتون ، ويستحوذ اصحاب الدكان على دموعهم وقلوبهم المكلومة ورئاتهم المنخورة ، ويعرضونها سلعا للبيع ، ويعلقون عنها الاعلان تلو الاعلان .

ليس هذا هو ما كنت تريده وتنشده ، ولا اخالك تريد شيئا الان، وقد كنت تقول لي دائما انك سئمت وانك سئمت وانك سئمت ، ومع انك تشعر بالسعادة والغبطة كلما اصغى اليك أحد ، ولكنك كنت تريـد ان يصغي اليك الناس حيا ، وليس ميتا . وانت تعرف جيدا انهم لا يصغون للاحياء ابـدا . الاحيـاء يهددونهم وينافسونهم ، ويفرضون عليهم ذواتا افضل من ذواتهم ، وهم لا يريدون ذلك ، لان كل واحد منهم منشغل بذاته . ولكن انشغالك بذاتك لم يكن كانشغالهم بذواتهم . كنت منشغلا باستنزاف ذاتك وقتلها ، وكانوا وما يزالون منشغلين بتقوية الجلد التمساحي الصلد الذي يغلفون به ذواتهم ويحمونها .

كنت تقول لي ان قصيدتك حية طالما كنت تنزفها من حياتك ، وانها ستموت اذا مت ، ولم تكن تريد ان تجعلها بضاعة . ولكن قصائدك لم تكن وحدها هي التي لاقت هذا المصير ، فقد جعلوك انت بضاعة ايضا ، وعلقوك في دكانهم وستبقى معلقا هنالك حتى تزول البضاعة والدكان واصحاب الدكان في عاصفة من رمال العدم .

لقد عقدوا قبل ايام مؤتمرا رفعوا فيه صورك عاليا ، وانشدوا قصائدك واحتفلوا بك ، ولم يمر وقت طويل على موتك ، وكنت قبل ان تموت بحاجة ، بل كنت تموت حاجة ، الى بعض ما كان في جيوبهم من نقود ، وفي بيوتهم من فرش وثيرة وارائك فخمة ، وفي مطابخهم من لذائذ الطعام ، وفي خزاناتهم من معاطف ثقيلة يمكن ان تحميك من لسعات برد الليالي الطويلة التي كنت فيها تسير وتسير وتسير ، مع الكلاب العاوية، الى غرفتك الباردة ، في ذلك الفندق الصفيق الذي كاد ان يطردك صاحبه منه لولا انه اشفق عليك ورثى لك ، وقد رحمك صاحب الفندق اكثر مما رحموك هم ، ولكنه لم يحضر ذلك المؤتمر ابدا . انه لايفهم هذه الامور ، ولا يفقه ، ولكنه كـان يحس ويشعر فقط ، كـان يحس بعذابك ، ويشعر بما كنت تعانيه من الم وجوع ، وكان يعطيك اللقمة احيانا ، والفلس ، ولا يقتل كبرياءك ابدا ، وانما يسجل ذلك في دفتـر كان هو يعرف جيدا ، وكنت انت ايضا تعرف جيدا ، انه لن يسدد .

وقد رأيت في ذلك المؤتمر صاحب الصحيفة التي كنا نعمل فيها معا. وكان اول الخطباء ، ورئيس المؤتمرين . اتذكر حين انكر هذا التمساح حقوقنا ولم يعطنا ثمن ما جدنا به من ارواح ، ودموع ، وآهات ؟ اتذكـر طردنا شر طرده يوم ان طالبناه بالثمن ؟

لقد خرجنا في تلك الليلة الهائلة صفر الايدي لا نلوى على شيء ، كالبغي التي باعت طهرها وعفافها لقاء ثمن بخس تشتري به بعض الخبز، وانقض عيها الف تمساح مزقوها اشلاء ثم القوا بها في زاوية آسنة عفنة من زوايا طريق السكارى والمثانات المتخمة بالبيرة ، وسرنا معا صامتين نخجل حتى من تبادل النظرات ، وكانت لدينا بقية من الخجل ..

يا صديقي العزيز ، ما اظنك تريد ان تتذكر كل هذه الامور ، ولعل روحك تقف في قاعة المؤتمر الخالية الان ، وتبحث عن ذلك المجد الزائف .. ساتركك تواصل البحث ، وسانساك انا ايضا ، ولا اعتقد انني ساكتب لك شيئا آخر .

ملاحظة : لم اعرف كيف ارسل اليك هذه الرسالة ، ففضلت ان اعلقها في الدكان ، عسى انك ما تزال بين المارة في شارع البشرية الطويل .. المخلص

انيس زكي حسن

صدر حديثا

النغم الأزرق

مجموعة شعرية جديدة

تاليف

حسن عبد الله القرشي

منشورات دار الاداب